بين الكاتب والأديب

ويسألونك عـن الكاتب الذي يرقى الى مستوى الأديب فقـل، كيف يغدو الكاتب أديباً إذا لم يعرف التحدي والعصيان فـي يـوم من الأيـام، إذا لم يخرج عن الطريق العام الذي تسلكه الجماهير، فهو يطيع كما تطيع الجماهيـر، ويرضى كما ترضى، ويؤمن بأخلاق السوق وتعاليمها وأنبيائها كما تفعـل الجماهير، أنا أعرف أنَّ الأديب الحقيقي هـو دائمـاً إزعـاج وخروج عن مألـوف الشارع، خروج علـى مقررات الأحزاب والحكومات وأخـلاق الغـوغاء وشبيحتهم، هو دائماً تحـدّ وعصيان ومخالفة قوانين الفكـر الغيبي والفكر الديني المتحصن بالخرافات والأساطير والعجائب. كيف يكـون الكاتب أديبـاً وهـو دائماً راكع ومطيـع، إنـه يطيع القـوة يطيع الجمـاهير والتقـاليد والأفكـار الموروثـة والأفكـار المعروضة فـي السوق، إنه يطيع كل أوامـر الإقطاع السياسي والإقطـاع الديني والإقطـاع المـالي، إنـه يعبد كل الأصنام المتصدرة دور العبـادة الغـارقة بتكاليف المناسبات، أنه يتحـول الى داعية خوف من النظام الأمني والطاعة لأشباح ذلك النظـام.

الأديب يعلم الجمـاهير كيف تتمرد وتتدرع بعنفـوان المروءة والشهامة، يعلمها كيف تعشق الحريـة وكيف تربط بين عشق الحريـة واحتـرام منطق العقـل، يعلمها كيف تجسد الحرية إمرأة جميلة حضارية وتحرق إنفعالاتها بخوراً على دروب تلك المرأة الجميلة الحضاريـة.

كتـّابنا في طـول العالم العربي وعرضه يلوثون النفوس بالأكاذيب التي يمليها عليهم الإستزلام والتبعية وتلك البرغماتية النفعية التـي لم يأخذوا من الغـرب إلاها، إنهم لا يحاولون تنظيف النفـوس من فيروسات العصبية القبلية والطائفية وذلك الفكر السلفي الإتباعي الذي أقفـل كل أبواب الإبداع بإسمنت الترهيب والترغيب، إنهم لا يعرفون التحـدي، حتى لـو تحدى الكاتب منهم فهـو يتحدى بعقلية التـاجر لا بعقليـة الأديب البطـل، يتحـدى عنـدما يحسب أن موقفـه يمنحه مـن المكاسب أكثـر مما يمنحه

الموقف الآخر المضاد، أنه يعارض حيث تكون المعارضة مربحاً لا مخاطرة، إنّ المعارضة عنده نوعٌ من البحث عن الربح، ليست المعارضة عنده صراعاً مع الخطر، صراعاً مع تنين الفكر الشمولي والفكر الغيبي، صراعاً مع أخلاق العبيد الذين يتنازلون عن حرياتهم لأنهم لا يجرؤون أن يتحملوا مسؤولية مواقفهم، الأديب يقف في وجه الخطر، يعاني بنفسه وجسده، الأديب يعلم ويعلّم أن الإنسان إذا سمح للآخرين بمصادرة عقله وحريته يكون قد تنازل عن إنسانيته، يكون قد سمح للآخرين أن يعاملوه كحيوان وليس كإنسان، الأديب يناضل سائراً على حدّ السيف لتحقيق إنسانيته وإنسانية مجتمعه، الأديب يرى الوقوف في وجه الخطر مروءة، يرى عصيان أنبياء السوق فعل إيمان.

الكاتب لا يقف في وجه الخطر، لا يواجه عواصف الديكتاتوريات السياسية والدينية ولكنه يمشي في ركابها مخترعاً الذرائع ليثبت أحقية موقفه المتخاذل. لقد وُجد شهداء للكلمة الحرّة في كل أدباء الشعوب الحية، نحن يوم كنا شعباً حياً قدمنا الكثير من شهداء الكلمة والموقف، كمال جنبلاط، أنطون سعادة، سمير قصير، جبران التويني، وقدمنا مرشحين دائمين للشهادة حمل رايتهم غسان التويني ويحملها الآن عقل العويط. أما اليوم فكتّابنا وجميع الكتّاب العرب أمام الخوف أكثر ركوعاً من التجار والعمال والسماسرة، إنهم لو فعل بعضهم شيئاً من مخاطرة لكان ذلك خطأً في التقدير أو تورط وليس تحدياً أو شجاعة، ومصيبة الكتاب العرب أنهم لا يملكون إلا النزر اليسير من العقل النقدي، لا يميزون الفرق بين الأكاذيب الذكية والحقائق، إنهم أصحاب عقول غيبية، هواة خرافات وأساطير وتبصير وتنجيم، إنَّ الإشاعات وأحاديث السوق والكذبة السياسية كل ذلك حقائق عندهم يفسرون بها الأحداث العالمية، كتّاب العرب لم يبلغوا مرحلة الوعي اليقيني، إنهم لا يعرفون القضايا التي تواجههم لذلك لا يرتفعون الى مستوى القدرة على علاجها. إنهم ليسوا شيئاً فوق المحاريب والجماهير، إنهم دعاة ضعف وهبوط، دعاة انهزام كل ذلك لأنهم لا يملكون العقل المنطقي والعقل النقدي لا يملكون مروءة البطولة ومع هذا يحلمون بأن يصنفوا أدباء. إنَّ الكتّاب العرب لم يستطيعوا أن ينجبوا مولوداً أدبياً أو فكرياً عربياً وذلك لسبب بسيط لأنهم لم يحملوا يوماً، فالحمل فعلٌ وانفعال أخذٌ وعطاء وهم

لم يأخـذوا إلا الشعارات ولم يعطـوا إلا علك الصـوف في مستنقعات الفكر السلفي، الحمـل معـاناة ألم ومخاطرة وتحدّ، وهم يبيعون للنـاس آلامهم ولا يتألمون، لقد بقوا في خانة مظـاهر الولادة ولم يلدوا قط، أين المذاهب الأدبية والأيدولوجية والسياسية التي أعطـوها، أين الحريـة التي زرعوها في شرايين الأجيال الجديدة لتثمر تطوراً وارتقـاءً وخلقاً وإبداعاً، أين العقلانية التي تخرج الناس المساكين من فكرهم الغيبي من تحشيشهم الخيـالي الذي فرضه عليهم حكـام الأنظمـة المخابراتية المتحالفين مع المرجعيات الدينية.

إنَّ جميع الفلسفات والمذاهب الأدبية والسياسية التي يحيى بها العالم لم يضع الكتّاب العرب منها شيء، بـل إنهم لم يضيفوا شيء ولم يطوروا شيء. كل ما أتقنوه هو فنّ الركوع أمـام أصنام القـوة، إذا اختلف حـاكمٌ أو زعيـم أو مرجـع ديني مع آخرين أمثالهم فلا نجـد كتـّاباً يفكرون أو يسألـون أو يعارضون في هذا الخلاف،وإنما نجد أتبـاعاً لهذا وأتبـاعاً لذاك، أتبـاعٌ كلهم يهتفون بالصوت والكلمة كأنهم أشياءٌ تقتسم، تقتسم بالإرث بالتـاريخ الدينـي بالمنفعـة، لذلك لا نجـد لا فكر ولا حرية ولا رفض عندما يقع الخلاف بيـن هـؤلاء وهـؤلاء، إنهم ضعفـاء لا لأنهم لا يجـدون القوة بل لأنهم يريدون الضعف يريـدون الضلال والتضليل، إنهم ضعفـاء لا يتـوافقون مـع الأفكار القويـة لأنها تكلفهم ما لا يستطيعون، إنَّ الموقف الصحيح للكـاتب أن يكون أديبـاً، أن يكـون دائماً معارضة وتحدياً وعاشق حرية، لا أن يكون داعية لحزب أو مـذهب أو مرجعيـة ماليـة أو مسجـل مشاهد، أين الكتـّاب الذين يتصدون للأنظمة الديكتـاتورية المخابـراتية التـي صادرت عقـول النـاس وحـرياتهم وحولتهم الى روبوتات لها أشكال بشـر ولكنها ليست بشـراً،أين الكتّاب الذين يتصدون للمرجعيات الدينية الرجعية الصاعدة والتي تصـارع الديكتاتوريات السياسية لتبنـي على أشلائها ديكتاتوريات دينيـة هي بـدورها ستصدّر عقول الناس وحرياتهم ولكن بسلطة أقوى بكثير مـن سلطة المخابرات وهي سلطة الحـرام والحلال،أين الكتّاب ينقذون الحرية والعقـل من براثـن أولئك ومخـالب هؤلاء، إنهم مجرد كتـّاب في دواوين السلاطين يضربون بسيفهم ويحاربون بريحهم.

نحن بحاجــة اليــوم الى أدبــاء وليس الى كتّـاب، الى عشاق حرية يكتبون بقلم العقل ويضربون بسيفه.

ملاحظة: صدر لكاتب المقال سنة 2012 عن دار النهار لليشر كتابين إثنين الأول محاورات على دروب المعرفة والثاني الشمس لحظة شروقها.

كمال يوسف سري الدين